صفَـاته

المشهور عن عليٍّ -كرَّم الله وجهه- إنه كان أول هاشميٍّ من أبوين هاشميِّين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهى في جملتها النبلُ والأيدِ والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدَّة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل إنَّ اسمه الذي اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثمَّ غيَّره أبوه فسماه عليًّا وبه عرف واشتهر بعد ذلك.

وكان عليٌّ أصغر أبناء أبويه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كلٍّ منهم وأخيه عشر سنين.

قيل: إن عقيلًا كان أحبَّ هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشًا وأهاب رسول الله عليه السلام بعمَّيه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دعوا لي عقيلًا وخذوا من شئتم.

فأخذ العباس طالبًا وأخذ حمزةُ جعفر وأخذ النبيُّ عليه السلام عليًّا كما هو مشهورٌ.

فعوَّضه إيثار النبيِّ بالحبِّ عن إيثار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقةً باقيةَ الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية.

وجاءت لهذه السابقة لواحِقُها الكثيرة على توقُّع واستعداد فتعود أن يفوته الحقُّ والتفضيل وهو يدرج في صباه.

وربَّما صحّ من أوصاف عليٍّ في طفولته أنَّه كان طفلًا مبكر النماء سابقًا لأنداده في الفهم والقدرة، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئًا من الدعوة النبوية التي يدقُّ فهمها والتنبُّه لها على من كان في مثل هذه السنِّ المبكِّرة.

فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين، ولاسيِّما المولودين منهم في شيخوخة الآباء..

ونشأ -رضي الله عنه- رجلًا مكينَ البنيان في الشباب والكهولة، حافظًا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة إنه كان رضي الله عنه ربَعةً أميل إلى القصر، آدَم -أي أسمر- شديد الأدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلُها، ثقيل العينين في دعج وسِعَةٍ، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضَّة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري لا يتبيَّن عضده من ساعده قد أدمجت إدماجًا.

وكان أبجر -أي كبير البطن- يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق مستدقُّها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقِّها،

شئن الكفَّين، يتكفَّأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبيِّ، ويقدم في الحرب فيقدم مهرولًا لا يلوي على شيءٍ.

وتدلُّ أخباره -كما تدل صفاته- على قوَّة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربَّما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهدٍ ولا حافلٍ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفَّس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدًا إلا صرعَه، ولم يبارز أحدًا إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعي بقلبه الأشدَّاء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان.

ومن مكانة تركيبه رضي الله عنه أنه كان لا يبالي الحرَّ والبرد، ولا يحفل الطوارئ الجويةَ في صيفٍ ولا شتاءٍ، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصَّيف.

وسئل في ذلك فقال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليَّ وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت: يا رسول الله، إني أرمد العين.

فقال: اللهم أذهب عنه الحرَّ والبرد، فما وجدت حرًّا ولا بردًا منذ يومئذٍ..".

***

ولا يفهَمُ من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدومَ الحسِّ بالحرِّ والبرد بالغًا ما بلغت بهما القساوة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا اشتدَّ ولم يتخِذْ له عدة من دثار يقيه.

قال هارون بن عنترة عن أبيه: دخلت على عليٍّ بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خِلق قطيفة وهو يرعد فيه.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيبًا وأنت تفعل هذا بنفسكَ؟.. فقال: والله ما أرزؤكم شيئًا، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حسٍّ بالصيف والشتاء. إنَّما هي مناعة قوية خصَّت بها بنيته. لم يخصَّ بها معظم الناس.

وكان إلى قوَّته البالغة، شجاعًا لا ينهض له أَحَد في ميدان مناجزةٍ، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنًا من الأقران بالغًا ما بلغ من الصّولة ورهبة الصيت. واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ودٍّ فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو في الحديد ينادى جيش المسلمين: من يبارز.. فصاح عليٌّ: أنا له يا نبيَّ الله.. وبه إشفاق عليه: إنَّه عمرو. اجلس. ثم عاد عمرو ينادي: ألا رجل يبرز؟. وجعل يؤنِّبهم قائلًا: أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قُتِلْتُم؟.. أفلا تبرزون إليَّ رجلًا؟..

فقام عليٌّ مرَّةً بعد مرَّةٍ وهو يقول: أنا له يا رسول الله. ورسول الله يقول له مرة بعد مرَّةٍ: اجلس. إنَّه عمرو، وهو يجيبه: وإن كان عمرًا.. حتى أذن له فمشى إليه فرحًا بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزَه وأقبل يسأله: من أنتَ؟.. قال ولم يزد: أنا عليٌّ. قال: ابن عبد منافٍ؟.. قال: ابن أبى طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أسن،

وإني أكره أن أهريقَ دمَك، فقال له عليٌّ: ولكنِّى والله لا أكره أن أهريقَ دمك. فغضب عمرو وأهوى إليه بسيفٍ كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل عليٌّ الضربة بدرقته فقدَّها السيف وأصاب رأسه، ثمَّ ضربه عليٌّ على حبل عاتقه فسقطَ ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعًا وعليٌّ يجأَرُ بالتكبير.

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاة الذي لا يؤسى على مصابه لأنه أحجى المصائب، وأقلها معابةً ألَّا يدفع. فكانت أختُ عمرو بن ودٍّ تقول على سبيل التأسِّي بعد موته:

لـــو كـــان قاتـــل عمـــرو غـــير قاتلـــه

بكيتـــــه أبـــــدًا مـــــا دمـــــت في الأبـــــدِ

لكـــــن قاتلـــــه مـــــن لا نظـــــير لـــــه

وكـــــان يـــــدعى أبـــــوه بيـــــضة البلـــــد

***

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يُصَابُ..

ويزيدها تشريفًا أنَّها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حيلة للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها عليّ بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهى التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم قويًّا أو ضعيفًا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدوِّ بعد الفراغ من القتال.

فمن تورُّعه عن البغي، مع قوَّته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحدًا قطُّ بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: "لا تدعونَّ إلى مبارزَةٍ. فإن دعيت إليها فأَجِب. فإنَّ الداعي إليها باغ والباغي مصروعٌ"..

وعلم أنَّ جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: "لا أقاتلهم حتى يقاتلوني. وسيفعلون!".

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقيل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض: يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشرِّ، فما رفع يده بالسيف قط إلَّا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قومًا فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبًا إعجاب الكارِهِ الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافرًا ما أفقهه. فوثَبَ أتباعه ليقتلوه. فنهاهم عنه، وهو يقول: إنَّما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفو عن ذَنب.

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ودٍّ: إني لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين..

فعرض عليه أن يكفَّ عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدَّث العرب بفراري، وناشده: يا عمرو. إنَّك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلَّتين إلا أخذت منه أحداهما. قال: أجل.

قال: فإني أدعوك إلى الإسلام أو إلى النزال. قال: ولم يا ابن أخي؟.. فوالله ما أحبُّ أن أقتلك.. فلم يكن له بدٌّ بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو أن يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللَّدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة: فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمَّى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصَّفين: من يبارز؟.. فخرج إليه رجل من أصحاب عليٍّ فقتله ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأوَّل، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟. فأحجم الناس ورجع من كان في الصفِّ الأول إلى الصف الذي يليه، وخاف على أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدلِّ بشجاعته وبأسه فصرعَه ثمَّ نادى نداءه حتى أتمَّ ثلاثة صنع بهم صنيعَه بأصحابه، ثم قال مسمعًا الصفوف: يا أيها الناس. إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم" ثمَّ رجع إلى مكانه.

أمَّا مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من شجاعته بين الشجعان. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرًا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترًا أو يأخذوا مالًا. وصلَّى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبد الله ابن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألدُّ أعدائه المؤلِّبين

عليه فعفا عنهم ولم يتعَقَّبهم بسوءٍ، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدَّةٍ فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاءً لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشًا.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوَّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها شيئًا، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحكَ؟.. إنَّا أُمِرْنَا أن نكفَّ عن النساء وهنّ مشركات أفلا نكفَّ عنهن وهن مسلمات؟.. وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودّع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالًا وأرسل معها من يخدمها ويخف بها. قيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمَّمهن بالعمائم وقلَّدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأفَّفت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، من استحقَّ منهم الكرامة ومن لم يستحقَّها، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال..

وتعدلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضَّغن على أعدى الناس له وأضرِّهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدًا غيره. ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودَّة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارجَ الذين شقُّوا صفوفه وأفسدوا عليه أمرَه وكانوا شرًّا عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرِّين..

***

وتقترن بالشجاعة -ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم- صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها، وهى صفة "الثقة" أو "الاعتزاز" أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولاسيَّما في مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهوًا وليست هي به ولا هي من معدنه وسمته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان.

فالزهو المذموم فضولٌ لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع.

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه

ولا يزال متصلًا بعمله في مواجهة خصومة، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه.. مثله هنا كمثل العروض التي تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كلُّ ما فيها ضربًا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهده وتحدَّثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس – بل لعلهم أو جبوا عليه– أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدَّم لنزاله. وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنَّهم –وقد احتاجوا إلى شجاعته– محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحبِّ والمناجاة، وهى أحبُّ القصائد إلى القلوب.

***

ومن تأصُّل هذه العادة في الطباع أنها تشاهد في جميع الأحياء فطرة وارتجالًا بغير اصطناع ولا تعمُّد. فلا نرى حيًّا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنًا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظرة وتنفيش ريشه أو شعره، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدقُّ بيده عليه ويقول بلسانِ حاله ما يقال باللسان، فإذا هو الفخر والحماسة وإذا هو عنوان الثقة والإقدام.

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان، ولاسيِّما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهًا لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنهِ وهو يهجم عليه.

وكانت هذه الصفة من صفات عليٍّ رضي الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرًا بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسمِّيها الزهو أو يسمِّيها الجفوة والخيلاء. قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر: إنَّك والله ما علمت لتنظر الخيلاء.. ومرَّ الزبير بن العوَّام مع رسول الله في بني غنَم، فرأى رسول الله عليًّا على مقربةٍ منه فضحك له وضحك عليٌّ يحيِّيه. فقال الزبير: لا يدع ابن أبي طالب زهوه. قال رسول الله: "إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم".

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التي يمتلئ بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلَّف مداراتها ولم يحس أنَّه يحتاج إلى مداراتها ولأنه لا يقصدها ولا يتعمَّد إبداءها.

***

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبَا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يومًا أن يعلم أنه شيءٌ في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبيِّ عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلِّب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعليٍّ أن يرتاع في مقام نجدةٍ أو

مقام عزيمة لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان عليًّا في تلك السنِّ الباكرة كما كان عليًّا وهو في الخمسين أو الستِّين. فما تردَّد وهم صامتون مستهزئون أن يصيحَ صيحةَ الواثق الغضوب: أنا نصيرُكَ. فضحكوا منه ضحكَ الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييدَ ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم.

على هذا هو الذي نام في فراش النبيِّ ليلةَ الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلى هذا هو الذي تصدَّى لعمرو بن ودٍّ مرة بعد مرة والنبيُّ يجلسه ويحذِّره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبيُّ: اجلس. إنه عمرو. فيقول: وإن كان عمرًا.. كأنه لا يعرف من يخافُ ولا يعرف كيف يخافُ، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفةٍ ولا اكتراث.

وتمكَّنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكينًا حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنَّه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: "اسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده لا تسألوني

في شيءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها".

ومن شواهدها أنَّه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق: "ما أعرف أحدًا من هذه الأمة عبَدَ الله بعد نبيِّنا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أَحَدٌ من هذه الأمة تسعَ سنين".

وزاده اتهام من حوله معتصمًا بالثقة بنفسه فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال: "نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استنَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاقتديته. فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما".

وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان رضي الله عنه لا يتكلَّفُ ولا يحتال على أن يتألَّف. بل كان يقول: "شرُّ الإخوان من تكلَّفَ له". ويقول: "إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقَه"، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاءَ يخطئون ما انتظره، ولاسيِّما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي اؤتمن إليها. فيحسبون أنَّها الجفوة البينة وأنَّه الزهو المقصودُ وما هو بهذا ولا بتلك. إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وإنَّما هو امتعاض المغموطِ المسيءِ ظنًّا بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهارَ تلك الخلائق زهوًا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاراه ألا يتكلف الإخفاء، فإذا التفت قاصدًا إلى ما في نفسه فهو لا

يقصد العجب ولا يرضاه، بل ينهى عنه ويشتد في اجتنابه، ويوصى من أحبَّ: "إيَّاك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها"..

"واعلم أنَّ الإعجاب ضدُّ الصواب، وآفة الألباب".

نعم، كان ملاكَ الأمر في أخلاق عليٍّ عليه السلام أنَّه كان لا يتكلف إظهار شيءٍ ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له: " أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ".

***

وكانت قلَّة التكلُّف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة واليأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعينه، وإنَّما يجيءُ منه على البديهة كما تجيءُ الأشياء من معادنها: كان مثلًا يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد. أفعجيب منه أنه يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياءِ؟ وكان يغفل الخضاب أحيانًا ويرسل الشيب ناصعًا وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقلَّ اكثراته لكلِّ خضاب ساترًا ما ستر، أو كاشفًا ما كشف. من رأي وخليقةٍ؟

بل كانت قلَّة التكلف هذه توافق منه خليقةً أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها.. أوهى قريبة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلَّما تفارقها، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضرِّ والبلاء كما يجترئُ به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحَدٌ قطُّ أن

يحصي عليه كلمةً خالفَ فيها الحقَّ الصراح في سلمِه وحربهِ، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعلَّه كان أحوجَ إلى المصانعة بين النصراءِ مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتُوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصِّدق في شدَّةٍ ولا رخاءٍ، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها. وكان أبدًا عند قوله: "علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل على عِلمِكَ، وأن تتَّقي الله في حديث غيرك"..

***

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة دنيا أو سَيْبِ دولة، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول: "لا أحبُّ أن يدخل بطني ما لا أعلم"..

قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أميَّة التي تبغض عليًّا وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات: "أزهد الناس في الدنيا عليٌّ بن أبى طالب".

وقال سفيان: "إنَّ عليًّا لم يبن آجرَّةً على أجرَّة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة" وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة ايثارًا للخصاص التي يسكنها الفقراء. وربَّما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام.

وروى النضر بن منصور عن عقبة ابن علقمة قال: "دخلت على عليٍّ عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكِسَر يابسَةٌ. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا ؟ فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشنَ من هذا.. وأشار إلى ثيابه فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به".

ومن هذا الزهد الشديد كان عليٌّ رضي الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال له: "لله أبوك لولا دعابة فيك" وإنه قال لمن سألوه في الاستخلاف: "ما أظنُّ إلا أن يلي أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان. فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن وليَ عليٌّ ففيه دعابة، وأحرِ به أن يحملهم على الطريق".

وأغرق ابن العاص في وصف الدعابة فسمَّاها "دعابة شديدة" وطفق يردِّدها بين أهل الشام ليقدح بها في صلاح الإمام للخلافة، وإنَّما نقول أنَّ ابن العاص أغرق في هذا الوصف، وأنَّ الدعابة المعيبةَ لم تكن قطّ من صفاته؛ لأنَّ تاريخ عليٍّ وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلًا على خلق الدعابة فضلًا عن الدليل على الإفراط فيه. فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربَّما كان مرجع ذلك أنَّ عليًّا خلَا من الشغل الشاغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حينًا إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه من الدعاية البريئة ثمَّ بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصَّةٍ واحدَةٍ أو شاردةٍ واحدةٍ تجيز لهم ما تقولوه.

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تنافي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية. فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته، واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهاته في سياسة الرجال.

والحق الذي لا مراء فيه أنه كان على نصيبٍ من الفطنة النافذة لا ينكره منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير. وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرَّق إليه علم فارس أو علم يونان..

وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب..

إلى هنا متَّفق عليه لا يكثر فيه الخلاف، ثمَّ يفترق الناس في رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشانئين المتحزِّبين، فيقول أناس أنه كان على قسطٍ وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرّج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه، وإنَّهم لدونه في الفطنة والسداد.

وهو رضي الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال: "والله ما معاوية بأدهى منِّي، ولكنه يغدر ويفجُر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس".

أمَّا مقطع الرأي بين الرأيين فنرجو أن نفصّله في مواضعه من الفصول التالية مشفوعًا بمناسباته، ولكنَّنا لا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملانِ ما نبسطه في مواضعه من الكتاب، ولا نحسبهما تتسعان لجدال طويلٍ وهما أنَّ أحدًا لم يثبت قط أنَّ العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات من العمل برأي الإمام، وأن أحدًا لم يثبت قطُّ أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيرًا من تصريفه، لو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه. وكلتا الحقيقتين حَرِيَّة أن تضبط لسان الميزان قبل يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك.

***

هذه صفات تنتظم في نسق موصولٍ: رجل شجاع لأنَّه قويٌّ، وصادق لأنَّه شجاع، وزاهد مستقيم لأنَّه صادق، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أنَّ الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.